الوفاء للحب الأول والأبدي*

محمد الداهي

-الحياة الفطرية

يتضح من خلال العنوان الفرعي لسيرة سعيد بنكراد " وتحملني حيرتي وظنوني، سيرة التكوين، أنه حصر ما يسرده عن ذاته في نطاق "سيرة التكوين" مركزا على الظروف والعوامل التي أسهمت في بناء شخصيته، وتأثيث مكونات هويته السردية، وبلورة مواقفه من الوجود. لو عاش في ظروف أخرى لسلك مسارب وطرقا مغايرة مُفضيةً به إلى مصير مختلف جذريا عن مآله الحالي. إن الظروف التي عاشها سعيد بنكراد، وحتمت عليه المرور بمحطات بعينها أدت به في- آخر المطاف- إلى النتائج نفسها حتى لو درس الفلسفة أو الرياضيات عوض الأدب. الحاصل أن المكان والظرف هما اللذان جعلا من بنكراد سيميائيا، و"من عبد الله العروي تاريخيانيًّاً، مثلما جعلا من سارتر وجوديا ذا نزعة إنسانية، ومن ألتوسير ماركسيا ضد النزعة الإنسانية، وهذا باعترافهما نفسهما"(1).

اعتاد كثير من الكتّاب استرجاع مسارهم الفكري عوض التركيز على حياتهم الخاصة لبواعث وجودية وثقافية. وهم بذلك يتبنون نمطا خطابيا يتميز ويختلف عن السيرة الذاتية وإن كان يستند إلى جملة من بنودها الأساسية (الحكي الاسترجاعي، تطابق الهويات السردية، تاريخ شخصية معينة)، ويندرج ضمن الأدب الخاص أو الشخصي. وما يميز بين النمطين أن السيرة الذاتية تُعنى بحياة السارد الخاصة والحميمة(الحياة الخاصة) في حين تستوعب السيرة الذاتية الفكرية الأجواء والظروف التي أسهمت في تكوينه الشخصي،

وصقل مواهبه، وتحسين مؤهلاته. ولا يتناول حياته الخاصة إلا بالقدر الذي تسعف على توضيح مساره الفكري، وإبراز المعارك التي خاضها والعوائق التي تغلب عليها حرصا على نيل مراده. يقول سعيد بنكراد:

"لم أكن معنيا في ما قدمته في هذا النص بمحددات السيرة الذاتية، فهو لا يُصنف ضمنها، لأنه لا يتحدث عن وقائع حياة نفعية لا تبعات لها. لقد أهملت الكثير من تفاصيل حياتي، فذاك جزء من حميميتي لا يخص شخصا آخر غيري، ولا أتذكر الكثير من التفاصيل فيها على كل حال. ما عرضته أو ما حاولت عرضه على القراء هو ما يمكن أن يحيط به التاريخ في الفكر والسياسة والمعرفة والنشاط التربوي. إنها محاولة لبناء زمنية خاصة بالوعي الفردي ضمن زمنية موضوعية"(2). نعاين- في هذا المقتطف- مدى وعي سعيد بنكراد بمقاصد استرجاع حياته الفكرية في امتداداتها السياسية والمعرفية والتربوية لتشييد زمنية الوعي الفردي ضمن الزمنية البشرية الموضوعية؛ ولذا اضطر إلى استبعاد حياته الخاصة لأنها جزء من حميمية التي لا تخص شخصا آخرغيره.

نزع - في هذا المنحى- إلى استحضار المحطات الأساسية في مساره الفكري وهو واع بمزالق الكتابة وخدعها، التي تلون ما حدث بمقتضيات الحاضر، وبشطحات أحلام محبطة، وتعيد تركيبه بفلسفة ورؤية جديدتين لتعمق المسافة بين الماضي والحاضر، ولانتقائية الذاكرة ومكرها، ولهوى الانتماء، وتضفي الانسجام على شتات الذكريات الحقيقية والمتوهمة مانحة لها معنى يناسبها.

ومن بين الأحاسيس التي ارتأى أن يبُئر عليها "محكي الطفولة" برمته لمكانتها في وجدانه، ورسوخها في ذاكرته إحساسُ "اليتم". لم يكن يعير أدنى اهتمام للفظ "اليتيم"، كما لم يكن له أي وقع سلبي على نفسيته لأن والدته حرصت على الحدب عليه رأفة به إلى

درجة لم يشعر أنه قد فقد والده، فليس في العالم وسادة أنعم من حضن الأم كما يقول المثل السائر. وما أيقظ إحساس اليتم في جوانحه هو اضطرار المعلم إلى إعطاء مثال عنه لأقرانه وتوضيحه لهم. "سعيد يتيم لأنه فقد أباه"(3). وبينما هو ينفجر باكيا لوقع الحدث على نفسيته واصل المعلم تنغيص نفسيته وإحراجه أمام زملائه بطرح السؤال المطرقة " لماذا سعيد يتيم؟" ثم الإجابة عنه للشرح والتوضيح." سعيد يبكي لأنه يتيم"(4). أدرك سعيد عندئذ معنى اليتم، وشعر بوخزه في طويته، وأضحى بالنسبة إليه تمثيلا رمزيا أشد وقعا مما يحيل ويرمز إليه في الواقع؛ في حين لم يكن من قبل يقيم العلاقة بين الدال ومدلوله في وجوده.

الحماسة الثورية:

قدم سعيد من المغرب الشرقي إلى المغرب العميق لمتابعة دراساته الجامعية بالعاصمة الروحية مدينة فاس، التي كان ولا زال يُتحدث عنها بإجلال لروحانياتها ورمزيتها. كانت معظم الدروس التي تُلَقَّنُ في الكلية ذات مرجعية تقليدية تُغَلِّبُ الطريقة البيداغوجية الإلقائية التي يؤدي فيها الطالب دورا سلبيا بنسخ ما يملى عليها واستظهاره أيام الامتحان. وقلما يتيح الأستاذ للطلبة هامشا لحفْزهم على المشاركة في بناء الدرس وإبداء آرائهم من محتوياته. وهذا ما جعل سعيد يتغيب عن حضور هذه الدروس التي كان ينفر منها لثقلها على نفسه.

لعل أهم تحول حصل في حياة سعيد هو انتماؤه إلى تيار يساري ثوري سبق له أن تشبع بعيِّناته الأيديولوجية لما كان تلميذا داخليا في "ثانوية يوسف بن تاشفين". وعندما قدم إلى جامعة فاس لمتابعة دراساته العليا احتك بمناضلي هذا التيار، فتأججت حماسته النضالية، واتسعت رؤيته للماركسية اللينينة التي كان لها تأثير كبير على مختلف المجالات المعرفية ومن ضمنها الدراسات الأدبية. لم يكن النص الأدبي وقتئذ يدرس لتعرُّف خاصيته الفنية

والجمالية، بل يُتعامل معه كوسيلة لتبجيل أفكار جاهزة أو التحريض عليها (مع وضد)، وذريعة للتنديد بالمستبدين ونشدان التغيير المنشود.

بعد مضي عقود عن هذه التجربة النضالية، يعيد سعيد تأملها وقراءتها وفق أسئلة جديدة أملتها التغيرات التي حدثت في الكون بأسره، ومست أيضا وعيه بتشبعه بأفكار وآراء مغايرة. وهذا ما حفزه على ممارسة النقد الذاتي بصوت مرتفع مبينا هشاشة الطهرانية النضالية التي كانت تنزه المناضل من الشوائب والنقائص المحتملة، وتعتبره الممثل الوحيد للحق والوصي عليه بتكريس صوته الأحادي الذي يعلو ولا يعلى عليه، وإخراس الصوت المعارض، وحرمانه من إبداء رأيه.

توج سعيد فترة النضال السياسي باختيار دواوين أحمد فؤاد نجم موضوعا لبحث الإجازة تحت إشراف الراحل حسن المنيعي. كان لأشعار الزجال- التي غناها الشيخ إمام- وقع في وجدان الطلبة بترداد أهازيجها في المظاهرات والإضرابات، وإذكاء الحماسة لإسقاط الأنظمة الرجعية. كان سعيد وقتئذ معتقلا في سجن عيد قادوس بفاس.

من الحب ما قتل:

عندما التحق سعيد (الاسم الحركي إدريس) بفرنسا عام 1981 بجواز مزور عبر الجزائر بصحبة الطيب بلغازي (الاسم الحركي حسين)، ارتأى أن يتابع دراساته العليا في جامعة السربون العتيقة موقعا على بداية فكرية وثقافية جديدة، ما فتئ مشوارها ممتدا إلى اليوم. درس على يد أساتذة مرموقين كان لهم الفضل في إرساء دعامات الدراسات البنيوية والشكلانية في فرنسا، وفي مقدمتهم جان كوهن وفليب هامون. وهو ما حفز سعيد على تبني منهجا جديدا في مقاربة النصوص واستنطاقها وتشييد معانيها عوض إسقاط مضامين إيديولوجية عليها، واضطر في الآن نفسه على نفض ما تعلمه من قبل حول الواقعية

الاشتراكية والنقد الإيديولوجي، واستلهام القول المأثور لكريماص" لا خلاص للناقد خارج النص" لفهم الإبدال البنيوي والانغمار فيه. كان سعيد شغوفا بحضور دروس هذا العالم السيميائي المتألق في فرنسا وغيرها من جامعات المعمورة، والتي كان يلقيها في " كلية اللاهوت" التابعة للمعهد البروتستاني. " كان شبيها بـ" شيخ زاوية"، وكان أتباعه ينظرون إليه نظرة كانت تصل أحيانا ألى درجة التقديس"(5).

احتك سعيد بالسيميائيات أول مرة في جامعة سونسيي (الحب الأول والأبدي) في المقاطعة الخامسة بباريس. كان أتباع هذه النظرية (مدرسة باريس) يعتنون أكثر بالإحالة إلى مصادرها ومفاهيمها، في حين لا يلتفتون إلى الإرث السيميائي البورسي، الذي شغل اهتمام جيرار دولودال في مطلع السبعينيات؛ فعرَّفَ بمحتوياته وترجمها تحت عنوان "كتابات حول العلامة 1979". وفي السياق نفسه يعود الفضل إلى أومبيرتو إيكو في إحياء الإرث البورسي باستثمار جملة من الإشكالات حول تأويل النص الأدبي.

ومن بين الملاحظات التي مافتئت عالقة في ذهن سعيد ملاحظة جوزيف كورتيس الذي كان عضوا في لجنة المناقشة: "لا تتمتع بسعة الخيال". إن هم الطالب- في هذا المستوى من التكوين والتعليم- يكون منصبا على تمثل المناهج والتمرن على اختبار إجرائيتها. وأيا كانت سلبيات الأداء ونقائصه، فهو يسعف الطالب الباحث على تعرُّف المناهج والنظريات النقدية، والحرص على الانضباط لقواعدها وحسن استخدام مفاهيمها الإجرائية. وبمرور الوقت يعي قصور التمرين المدرسي ومحدوديته، ويتخذ بالتالي المسافة النقدية تجاهه للتعامل مع النص بحرية أكثر سعيا إلى استيعاب آفاقه الرحبة في تماس وتعالق مع مجريات الحياة وتقلباتها. علاوة على ذلك لا يراهن الأساتذة الباحثون في مختلف "وحدات التكوين" بالجامعات الفرنسية على تلقين المعارف النفعية للطلبة، بل

يدافعون عن تصوراتهم وآرائهم في فهم النصوص والحياة على حد سواء. "وهذه الروح هي التي احتفظت بها، وهي التي حاولت أن أنشر بعضا منها عند طلبتي، وأقتسمها مع أصدقائي"(6). وعليه، لا تعد السيميائيات وصفة جاهزة أو عقيدة محنطة، بل هي طريقة لتدبر اشتغال المعنى في النص، وإثارة النقاش حول أساليب الحياة وأنماطها بحثا عن الطمأنينة المفتقدة.

في النفس شيء من حتى:

غادر سعيد باريس مكرها وباكيا لفرادتها وتميزها، ورمزيتها الثقافية والحضارية، وجمال معالمها ومناظرها وبهائها، واستيعابها أجناسا وألوانا وحساسيات مختلفة. قضى في أحضانها أربع سنوات لمتابعة دراساته العليا. كانت -على قصرها- كافية لتوقعه في حبها، ومفعمة بالأنشطة الثرَّة (الدراسة، النضال، القيام بأعمال بسيطة لتوفير مصاريف الكراء وشراء الكتب، العشق). تزامنت عودته إلى المغرب بتحقق انفراج سياسي أتاح العفو على المتابعين السياسيين، وبتخصيص مناصب مالية لتوظيف أساتذة في الجامعات المستحدثة.

وفي هذا السياق، سيصدر سعيد- بمؤازرة زمرة من الأساتذة الباحثين(الراحلان عبد العلي اليزمي ومحمود ميري، وأحمد الفوحي، ومحمد الولي، وكمال التومي)- مجلة "علامات" تطلعا إلى نشر معرفة متخصصة في الدراسات السيميائية والنقدية الحديثة، وبلورة مشروع ثقافي حداثي، وتنوير العقول بإثارة النقاش العلمي الرصين، والتوق إلى أفق يضمن للمواطن كرامة العيش، ويستوعب الآراء والمواقف المتعددة والمختلفة. ارتأى مؤسسو " علامات" استحداث تقليد جديد موسوم بـ "أربعاءات الأكاديميا" في رحاب كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمكناس. وبحسب ما يوحي به الاسم يُنظم لقاء علمي في الأربعاء الأول من كل شهر. يتطوع محاضر بإعداد عرض ثم يعلق عليه أستاذان. وأحيانا كانت توجه دعوة إلى

كتّاب مرموقين (من قبيل عبد الله العروي، وعبد السلام بنعبد العالي، وفريد الأنصاري) بغض الطرف عن انتماءاتهم وميولهم لإثارة النقاش حول القضايا الحيوية من منظورات وخلفيات متعددة. لقيت هذه المبادرة صدى طيبا عند الأساتذة والطلبة بحرصهم على تتبع مواقيتها بانتظام، والاستفادة من النقاشات المثارة حولها.

ومن بين التجارب- التي أغنت مساره البيداغوجي والعلمي- تلقيه دعوات للتدريس بصفته أستاذا زائرا في المؤسسات الجامعية أو المعاهد العليا في تونس. وبفضل تردده على تونس تعرَّف إلى صفوة من الباحثين التونسيين الخلَّص، واكتشف معالم البلد وعاداته وتقاليده، وعاين حدة التنافس العلمي المشروع بين النُّخبتيْن المغربية والتونسية لتقارب مطامحهما ومساعيهما في كثير من المجالات المعرفية، وحرصهما على تجويد الأداء العلمي مع تفاوت نسبي في تحديد المعايير المنشودة. ومن الذكريات الأثيرة لدى سعيد هو زياراته المنتظمة لجامعة صفاقس لتدريس طلبة السلك الثالث والدكتوراه وتكوينهم، وإدراج اسمه ضمن المشاركين الدائمين في مؤتمر التأويل الذي كان ينظمه مختبر التأويل تحت أشراف الأستاذ الباحث محمد بنعياد.

أضحى- باتساع رؤيته وعبارته- يهتم بالصورة من منظور السيميائيات التأويلية سعيا إلى الإمساك بالمواضيع الكبرى التي تدغدغ مشاعر الإنسان إلى أن غدت جزءا من غريزته واستيهامه، مُسرِّبةً إلى وجدانه في غفلة منه (التطويع أو الإقناع السري) لتغيير سلوكه ونمط عيشه وفلسفته في الحياة.

تغمرنا الصور الآن من كل جانب، وأضحت جزءا من وجداننا، وذاكرة بصرية تستعيد قلقنا وانفعالنا وغموض طويتنا. ورغم دورها في توجيهنا وتغيير أسلوبنا في الحياة لم تحظ بالدراسة اللازمة في العالم العربي. وهذا ما حفز سعيد - بحكم تخصصه واطلاعه على

مراجع مفيدة- على تدريس وحدة "الصورة الإشهارية" وترسيخ بناياتها حتى تصبح تقليدا في الجامعة المغربية ، وحفز طلبة الدكتوراه على تناولها في أطاريحهم الجامعية. وفي هذا السياق سينشئ "ماستر سيميائيات اللفظ والصورة" في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط لتحقيق جملة من الأهداف البيداغوجية، وفي مقدمتها تأهيل الطلبة إلى تحليل الخطابات البصرية بأدوات علمية لإبراز مكوناتها البارزة، واستجلاء وظائفها ورهاناتها في المجتمع، وتحويل الدرس الجامعي إلى مادة حيوية تسعف على فهم الوضع البشري بشكل أفضل، واكتشاف أشياء مجهولة فيه، واقتراح أنماط جديدة للعيش. وكان لي الشرف أن أكون من ضمن الأساتذة الذين التزموا بتدريس وحدات الماستر، التي كانت -فيما أعهد- جديدة ومسايرة للمستحدثات المعرفية والمنهجية. ولم يكتف الماستر - الذي كلفني سعيد بتنسيق فعالياته- بتدريس المواد الجديدة والراهنية، بل كان ينظم ندوات علمية ودورات تكوينية بانتظام لإثارة النقاش الهادئ حول جملة من المواضيع السيميائية، وتكوين الطلبة تكوينا علميا رصينا.

في مفترق الطرق:

يجد الإنسان نفسه أمام طرق متعددة، وعليه أن يختار أيها أنسب وأفضل لتحقيق متمنياته في الحياة. عندما يقطع أشواطا في الطريق المنشود يصعب عليه أن يعود القهقرى لتبني اختيار آخر من الاختيارات الممكنة. وهكذا شجعت شروط وظروف معينة سعيدا على السير في الطريق الممهد له مهتديا بنبض قلبه، ومستنيرا بمنطق عقله، وحريصا على تعزيز مطامحه وتفادي الخسائر الممكنة.

لقد وجد في مدينة الرباط ضالته في الحياة والشعور بالارتياح والطمأنينة لهدوئها وجمالها ويُسر التنقل بين أرجائها. دشن حياة جديدة بعد أن تخلص من الأنشطة الزائدة

التي غالبا ما تربك مشاريع الباحث، وتقلق راحته، وتسبب له مشاكل هو في غنى عنها. لعل هذه الفترة من أزهى مراحل عمره وأخصبها، إذ أصدر خلالها مؤلفات وترجمات كثيرة، واطلع على مصادر هامة في مجال تخصصه، وانفتح على آفاق جديدة.

وإن نأى بنفسه عن النضال السياسي ظل وفيا للمبادئ والقيم التي تربى عليها مؤثرا النضال الثقافي لدوره الريادي في تغيير ذهنية المواطنين. ومن ثم أضحى أكثر حرية في توجيه النقد للأحزاب السياسية والمؤسسات الثقافية والتعليمية، والكشف عن عيوب تكوينات الماستر والدكتوراه والطرائق البيداغوجية المعتمدة، وإبراز الأسباب التي ما فتئت تؤدي إلى إخفاق المشاريع الجماعية، واستفحال مظاهر التزلف والتفاهة والرداءة، وهو ما أثر سلبا في أداء البحث العلمي. وضع سعيد يده على مكامن الداء التي تعيق تطور المجتمع المغربي، وتحول دون لحاقه بالدول المتقدمة. ومما يؤسف له- مقارنة بالتجربة الفرنسية- عدم وجود صلة بين الجامعة ومحيطها الخارجي، وتركيز التعليم على اجترار المعارف الجاهزة.

ما يسترعي الانتباه في مساره الفكري- علاوة على صبره ومكابدته وعزيمته وطموحه- وفاؤه لسيدة المقام " العلامة" التي منذ أن تعرف إليها أول مرة في باريس وقع في عشقها إلى حد الجنون، وظل وفيا لها ومتشبثا بها لتوافرها على سمات لا نظير لها: الحضور البهي، وكثرة الأسرار والألغاز، والصمت الموحي، والإقناع السري، والتعدد، والتنوع، والديمومة، والشباب المتجدد.

------

*-انظر النص كاملا في : www.saidbengrad.net

1-عبد الله العروي، **بين الفلسفة والتاريخ**، ترجمة عبد السلام بنعبد العالي، المركز الثقافي للكتاب،ط1،2020، ص..9

2-سعيد بنكراد، **وتحملني حيرتي وظنوني**، م.سا، ص.14.

3-نفسه،ص.30.

4- نفسه،ص.30. 5 - نفسه، ص. 109. 6- نفسه، ص. 176.

*****

صدر حديثا للأستاذ محمد الداهي